مقياس التواصل الثقافي بين المشرق والغرب الإسلامي.

ماستر 2 تاريخ وحضارة الغرب الإسلامي في العصر الوسيط.

المحاضرة الأولى. مدخل

يتناول هذا المقياس ظاهرة التواصل الثقافي بين المشرق والغرب الإسلامي في العصر الوسيط، هذه الظاهرة التي لها أهمية كبيرة في ربط الشعوب وتقدم الحضارات فبفضل التواصل تمكن الانسان من تحقيق تطور علمي وفكري خاصة إذا كان بين منطقتين تربطهما روابط كثيرة منها الدينية واللغوية والمصير المشترك والامتداد الجغرافي.

ينقسم محتوى المقياس الى قسمين، الجزء الأول يتناول عوامل التواصل الثقافي بداية من الفتح الإسلامي وإنشاء المدن الإسلامية ثم حركة التعريب وهجرة القبائل العربية الى بلاد المغرب، وعلى رأسها بني هلال وبني سليم وغيرها، ثم الرحلة العلمية ورحلة الحج وحركة العلماء بين البلدين مرورا بالإجازة العلمية والمناظرات العلمية.

أما الجزء الثاني يتناول مظاهر التواصل الثقافي، في المجال الديني والعلمي والفني ومعماري.

1 مفهوم التواصل الثقافي.

التواصل الثقافي عملية حضارية متكاملة، وهي ضرورة إنسانية وحضارية، إنسانية فهي الطريق الفعال لتحقيق إنسانية الانسان وإبراز قوى الخير في نفسه، وهي الصفة المثلى للتعاطي مع المختلفين معرفيا وفكريا، (التواصل لغة من فعل واصل، ويشير الى حدود المشاركة والابلاغ والاطلاع والاخبار والتلقي والصلة بين الفعلين ، أما اصطلاحا فيختلف حسب نوع الدراسة لغوي، ديني، روحي ... أما الثقافة اصطلاحا موروث إنساني مادي ولا مادي وهو كل السلوكيات المكتسبة من خلال الاحتكاك والممارسة، إما عن طريق جماعات بشرية او مناطق برية وبحرية، أفقي من خلال حضارات في نفس الزمن ورأسي من خلال تعاقب الأجيال.).

التواصل الثقافي له مفاهيم عديدة تختلف حسب موضوع البحث، فهو تبادل الثقافات الرئاسية او فروعها تحاورا او تعارفا وتلاقحا، وقد يكون بين ثقافات متزامنة أي أقاليم ثقافية معينة، او بين الأجيال المتعاقبة، (أفقي-رأسي)، والتواصل بين الشعوب من الظواهر الإيجابية الهامة التي كان لها دور كبير في تطور الفكر الإنساني وتقدم الحضارات والثقافة العالمية، (تأثير وتأثر دور الحضارة الإسلامية في الأندلس).

ويعود التواصل على المجتمع بفوائد كثيرة فهو يساهم في تعزيز تماسك المجتمع ووحدته وتقارب المجتمعات ثقافيا وفكريا، وهو من الظواهر الهامة التي تساعد على التطور الازدهار الثقافي في جميع انحاء العالم، فقد كان هذا التأثير المتبادل أحد الركائز الأساسية في ازدهار الحياة العلمية والفكرية بصفة عامة، كما له دور في الجوانب الغير الثقافية، التبادل الاقتصادي والتجاري والسياحي والاجتماعي وغيره، ففي العصر الوسيط لم تكن الحدود السياسية والجغرافية تمثل عائقا وحائطا امام طالبي العلم من المسلمين وحتى غيرهم في اختيار المركز العلمي الذي يودون الدراسة فيه وحتى الاستقرار فيه، بل كان لطالب العلم الحرية الكاملة في اختيار العلماء والمراكز العلمية التي يفضلون البقاء فيها حسب المكانة الدينية والعلمية.

2-التحديد الجغرافي المشرق والغرب الإسلامي.

المشرق والمغرب في اللغة تطلق على شروق وغروب الشمس فالمشر قهي المناطق الواقعة شرق النيل او مصر والمغرب هي المناطق الواقعة غرب النيل، فالمشرق الإسلامي يضم مناطق مصر والجزيرة العربية وبلاد الشام، ويمتد من المحيط الهندي الى بادية الشام او دجلة والفورات ومن الخليج العربي وبلاد فارس الى نهر النيل.

ومن اهم مميزات المشرق الإسلامي طبيعيا هي امتداد الجبال القديمة البركانية إضافة الى جبال حديثة في الأطراف الشمالية للجزيرة العربية مع الامتداد الواسع للصحاري (قلب الجزيرة وبلاد الشام)، مناخ المنطقة صحراوي في معظمه باستثناء بعض سواحل بلاد الشام، سكان المنطقة هم العرب وبعض الأقليات القليلة، اللغة المنتشرة هي العربية، اهم المدن مكة والمدينة وبغداد ودمشق والموصل والقاهرة وبيت المقدس، وهي كلها مراكز جذب رئيسية بسبب عوامل دينية وتاريخية.

المغرب (في لسان العرب، البعد او الثنائي) يمتد من برقة الى المحيط الأطلسي مرورا الى الأندلس ويمكن إضافة صقلية والسودان الغربي، طبيعيا جبال حديثة التكوين غير مستقرة على شكل سلاسل، وفي الجنوب جبال قديمو بركانية، مناخ معتدل (مناخ البحر المتوسط) اما المنطق الجنوبية فمناخ صحراوي، سكان المنطقة من الامازيغ وبغض الأفارقة واليهود بعد طردهم من اورشليم في القرن 5م ثم اصيف العنصر العربي بعد الفتح الإسلامي.

- لطفي ديش التواصل الحضاري في الثقافة العربية الإسلامية.

إبراهيم عبد الله غلوم ، الثقافة واشكالية التواصل الثقافي ف مجتمعات الخليج.

- حسن خضيري احمد، صفحات من تاريخ المغرب الإسلامي.

المحاضرة الثانية

عوامل التواصل الثقافي

لقد ساهمت عوامل كثيرة في التواصل الثقافي والتقريب بين بلاد المشرق والغرب الإسلامي، وكانت هذه العوامل مشتركة بين البلدين بداية من الفتوحات الإسلامية وإنشاء المدن الإسلامية واستقرار العنصر العربي ببلاد المغرب، إضافة إلى الرحلة العلمية والدينية وحركة العلماء وتبادل الإجازات والمصنفات بين العلماء، ومن خلال هذه العوامل حدث تقاربا وتواصلا بين المشرق والغرب الإسلامي.

1 أثر الفتوحات الاسلامية

يمثل الفتح الإسلامي أول اتصال بين المشرق الإسلامي وبلاد المغرب، حيث ضمت الفتوحات مجموعات بشرية وبالتالي اكتشاف المنطقة ووصول العنصر العربي إلى بلاد المغرب عبر هذه الفتوحات، خاصة وان الفتوحات استغرقت مدة طويلة مقارنة مع باقي المناطق الأخرى، التي فتحها المسلمون كالعراق وبلاد فارس والشام ومصر في مدة عشر سنوات تقريبا، بينما لم يخلصوا من فتحهم لبلاد المغرب إلا بعد سبعين عاما، وهذا لعوامل كثيرة تتعلق بالجانب البشري طبيعة الامازيغ والجانب الطبيعي والجغرافي وكذلك تدخل الروم في الصراع.

لقد مرت الفتوحات بعدة مراحل شهدت كل مرحلة توافد العديد من العناصر العربية من المشرق إلى بلاد المغرب.

فبعد أن فتحت مصر على يد القائد عمرو بن العاص سنة 21هـ 642م كان من الطبيعي إن يمتد الفتح تجاه بلاد المغرب باعتباره امتداد جغرافي للمنطقة، إضافة إلى رغبة المسلمين في تخليص هذه الشعوب من قبضة المستعمرين ونشر الدين الإسلامي، وقد مر الفتح الإسلامي بمرحلتين أساسيتين.

مرحلة الاستطلاع 21هـ إلى 49هـ (الإرهاصات)

بعد فتح مصر تطلع عمرو بن العاص إلى فتح بلاد المغرب لتأمين حدود مصر من الخطر البيزنطي، فأرسل حملة استطلاعية بقيادة عقبة بن نافع إلى برقة ثم سار هو بنفسه بعد أن اطمأن لنتائج الحملة الأولى إلى برقة التي كان تسكنها قبيلة لواتة البترية، وقد حقق عمرو بن العاص انتصارات عديدة فبعد أن قدم سكان برقة الطاعة للمسلمين واصل عمرو السير إلى طرابلس ثم فتح بنزرت، وعندما استشار الخليفة عمر بن الخطاب في مواصلة الفتح رفض هذا الأخير وأمره بالتوقف وعدم المخاطرة بالجيش في مناطق مجهولة.

وفي عهد عثمان بن عفان أسندت ولاية مصر إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي قاد حملة إلى افريقية سنة 27هـ 648م ، وقد حقق هذا الوالي انتصارات كبيرة حيث تمكن من القضاء على القائد البيزنطي جرجير (القائد جريجوريوس المعروف بجرجير عند العرب) وفتح سبيطلة وفرض الجزية عليهم وجمع غنائم كثيرة، وبعدها عاد إلى مصر واكتفى بما حققه من نصر دون المخاطرة بجنوده.(سبب الرجوع دون ان يترك أحدا نظرا لتأهب البيزنطيين للانتقام لمقتل جرجير، أو نظرا لكثرة الغنائم والمحافظة عليها).

وفي هذا الوقت دخلت الخلافة الإسلامية في مرحلة الفتنة بداية من مقتل عثمان رضي الله عنه وظهور الصراع بين علي ومعاوية لينتهي بمقتل علي رضي الله عنه، فتوقفت الفتوحات عدة سنوات، وفي عهد الدولة الأموية أدرك معاوية أهمية افريقية من الناحية الاقتصادية ودورها الاستراتيجي لذلك تجددت الفتوحات حيث قرر معاوية مواصلة الفتح وعهد بهذه المهمة إلى معاوية بن حديج سنة 45هـ الذي تمكن من فتح عدة مدن في افريقية منها قابس وسوسة وبنزرت، وهنا تنتهي المرحلة الأولى من مراحل الفتح حيث مكنت المسلمون من الاحتكاك بالبربر ومعرفة أحوال بلاد المغرب.

مرحلة التنظيم 50-89/670-708م (الفتح الحقيقي او الارتكاز والانتشار)

حملة عقبة بن نافع 50-55هـ: تولى عقبة قيادة الجيوش سنة 50هـ فدخلت الفتوحات بذلك مرحلة الفتح الحقيقي، وبعد أن تمكن عقبة من فتح بعض المدن أقام معسكرا دائما لتثبيت الإسلام والذي تحول إلى مدينة القيروان في موقع بوادي كثير الشجر تأوي إليه السباع والوحوش وهو موقع بعيد عن الساحل لتفادي غارات الأسطول البيزنطي، وأقام بها مسجدا وأمر الناس ببناء دورهم حول المسجد.

ولاية أبو المهاجر دينار 55-56هـ/ 675-682م

بعد إتمام بناء القيروان عزل عقبة وعين أبا المهاجر (سبب العزل له علاقة بسياسة عقبة مع البربر، وكذلك إلى رغبة مسلمة بن مخلد والي مصر) الذي عرف بالدهاء وحسن السياسة، فقد تعامل مع البربر بطريقة تحفظ لهم مكانتهم

وشخصيتهم فتمنك من استمالة البربر البرانس إليه وعلى رأسهم كسيلة الأوربي الذي ترك المسيحية ودخل الإسلام، استمر أبو المهاجر سبع سنوات حقق فيها ما لم يحققه قبله قائد مسلم في بلاد المغرب، ووصلت فتوحه إلى مشارف المغرب الأقصى ومن أعماله المشهودة بناءه لمسجد سيدي غانم ببلدة ميلة سنة 59هـ.

ولاية عقبة الثانية 62-64هـ/682-684م

بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان سنة 60هـ أعاد الخليفة يزيد بن معاوية عقبة إلى بلاد المغرب للمرة الثانية أعطاه سلطة أوسع حيث استقل إداريا عن مصر، وبعد وصوله إلى افريقية قام باعتقال أبا المهاجر وكسيلة وبالتالي فقد خسر البربر الذين في صف أبي المهاجر، ثم قام بحملته الكبرى في بلاد المغرب ووصل إلى المحيط الأطلسي، ففتح عدة مدن وقلاع وقام ببناء مسجدا بسوسة وآخر في درعة وبعد هذه الانتصارات سرح معظم جيشه في طريق عودته إلى القيروان ويقي معه مئات فقط، وأثناء رجوعه تفاجا بظهور كسيلة الذي كان قد فر من سجنه وقرر الانتقام من عقبة لذلك تحالف مع الروم، ودارت بينهما معركة عند تهودة سنة 64هـ استشهد فيها عقبة وأبو المهاجر، وبعدها استولى كسيلة على القيروان.

ولاية زهير بن قيس البلوي 69هـ/688م

لم تستطيع الخلافة الأموية مواصلة الفتح بسبب المشاكل الداخلية وثورة عبد بن الزبير، وفي عهد عبد الملك بن مروان تجدد الفتح حيث امر زهير البلوي بالتحرك إلى افريقية، هذا الخير ورغم صعوبة المهمة إلا انه استطاع إلحاق الهزيمة بالروم وحليفهم كسيلة وبذلك انتهت مقاومة البربر البرانس وانتقلت المقاومة

الى البربر البتر وزعيمتهم الكاهنة من قبيلة جراوة، وقد قتل زهير في هذه المواجهة في نفس السنة.

ولاية حسان بن النعمان 73-85هـ/693-704م

جاء على جيش قوامه 60 ألفا وتمكن من التغلب على الروم وبسط نفوذه على البلاد من برقة إلى أطراف المغرب الأقصى تمكن من القضاء على الكاهنة زعيمة البربر في معركة قوية بواد مسكيانة في منطقة عرفت ببئر الكاهنة، ومن أعماله بناء مدينة تونس وأنشأ بها دار لصناعة السفن وبنى بها مسجدا، وقام بتنظيم افريقية إداريا فدون الدواوين ونظم الخراج، وعمل على نشر الدين الإسلامي واللغة العربية بين البربر، وهكذا فقد كانت مرحلته مهمة جدا في مجال التواصل بين المشرق والمغرب، حيث بداية الاستقرار والحاق المنطقة بالخلافة الإسلامية وفتح مجال التواصل.

ولاية موسى بن نصير 85-95هـ/704-715م

دامت ولايته حوالي عشر سنوات تمكن فيها من القضاء على جيوب المقاومة البيزنطية وإخضاع العناصر البربرية، ثم تطلع إلى فتح الأندلس بمساعدة طارق بن زياد.

ومن خلال هذه المراحل الطويلة زمنيا انتشر الدين الإسلامي وهو الركيزة الأساسية للتواصل الثقافي (أخوة، تضامن، تعاون).

الفتح أحدث انقلابا دينيا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا حيث أثرت حضارة المشرق تأثيرا قويا على بلاد المغرب.

بعض قادة الفتح ركزوا على الاستقرار من خلال بناء مراكز الاستقرار حسان بن النعمان (المدن المساجد القلاع)، عقبة مدينة القيروان، هذا يقودنا للحديث عن عامل آخر من عوامل التواصل له علاقة وطيدة بالفتح الإسلامي وهو

إنشاء المدن الإسلامية

إن نشأة المدن الإسلامية في المناطق المفتوحة يمثل تحولا في سياسة الفتح حيث يمكن من الاستقرار وتطور الحياة الدينية والاجتماعية والثقافية، فهذه المدن تحمل الطابع الإسلامي متمثلا في منهاج الإسلام ومبادئه الداعية إلى الوحدة والتفكير والإبداع، مما يؤدي إلى تقدم الحياة وازدهارها وخاصة الجانب الفكري، والى تحقيق التعاون والإخاء بين المسلمين، ومن ابرز المدن التي أدت هذا الدور القيروان التي أسسها عقبة بن نافع عند توليه قيادة الفتح في بلاد المغرب سنة 55هـ، وقد كان لها دورا بارزا في استقرار المسلمين في بلاد المغرب، فقد سكن العرب إلى جانب البربر وعم الدين الإسلامي في أرجاءها، فساهمت في تحقيق التواصل الثقافي نظرا لما حققته في مجال التقارب بين العرب الفاتحين والأمازيغ سكان المنطقة.

المقياس: التّواصل الثّقافي.

المحاضرة الثّالثة: عوامل التّواصل الثّقافي

2- حركة التّعريب:

لقد كان لتعريب القبائل الأمازيغيّة في بلاد الغرب دور فعّال في تحقيق التّواصل الثّقافي، باعتبار أنّ اللّغة هي أساس التّواصل بين الشّعوب أو الأفراد، لقد ساهمت عوامل كثيرة في تحقيق التّعريب منها الدّين الإسلامي، فحبّ الأمازيغ للدّين الإسلامي ومحاولة تعلّم مبادئه جعلهم يقبلون على تعلّم اللّغة العربيّة من أجل القيام بفرائضه على أحسن وجه، وقد كانت ظاهرة التّعريب في البداية غير مقصودة بل حبّ الأمازيغ للدّين الإسلاميين كذلك سيّاسة بعض القادة تجاه البربر خاصّة حسّان بن النعمان الّذي قرب إليه البربر وأدخلهم في الجيش الإسلامي وساوى بينهم في العطاء والمعاملة، فأحبّه البربر وأخلصوا للدّولة، ومن جهة أخرى فقد اهتمّ بتعليم الجنود المغاربة أصول الدّين الإسلامي، وأرسل الفقهاء إلى سائر أنحاء البلاد لتعليمهم قواعد الدّين الإسلامي ونشر اللّغة العربيّة.

أمّا في المرحلة الثّانية فيمكن أن نقول إنّ التّعريب كان مقصودا ففي عهد عبد المالك بن مروان وعمر بن عبد العزيز ثمّ تنظيم الإدارة الماليّة والجيش وتعريب الدّواوين وفرض اللّغة العربيّة في جميع المكاتبات الرّسميّة.

أمّا عمر بن عبد العزيز فقد عين على إفريقية إسماعيل بن عبيد الله الّذي دعا البربر إلى الإسلام لأنّه كان فقيها فاضلا زاهدا، وكان يلافقه عشرة من التّابعين لتعليم أهل المغرب تعاليم الدّين الإسلامي الصّحيح، فأقبل البربر من شتّى النّواحي للأخذ عنهم، كما قام هؤلاء الفقهاء بإنشاء المساجد والكتاتيب، وهكذا تعلّم البربر الدّين الإسلامي واللّغة العربيّة وأقبلوا عليها باعتبارها لغة القرآن، بل ورحل بعضم إلى المشرق للاستزادة من العلم واللّغة العربيّة، وفي القرن الثّاني الهجري ظهر في بلاد المغرب من يؤلف بالعربيّة.

وهكذا كان لانتشار اللّغة العربيّة في بلاد المغرب بعد الفتح الإسلامي دور بارز في تحقيق التّواصل الثّقافي بين المشرق والغرب الإسلامي، حيث سهّلت اللّغة طرق وجسور التّواصل.

3- الهجرة العربيّة:

بعد الفتح الإسلامي بدأت الهجرة العربيّة نحو بلاد المغرب لأسباب كثيرة دينيّة وسياسيّة، وكانت هذه الهجرات في أوقات مختلفة منذ بداية الفتح، وقد ساهمت هذه الهجرات في تعزيز انتشار الدّين الإسلامي ثمّ اللّغة العربيّة، فقد ضمّت هذه الهجرات عدد من العلماء والفقهاء إلاّ أنّ أكبر هذه الهجرات كانت أيام الدّولة الفاطميّة بمصر حيث جاءت الهجرة الهلاليّة الّتي ضمّت بنو هلال وبنو سليم، ببطونهم المختلفة، فبعد أن شكّلت هذه القبائل خطرا على المستنصر الفاطمي ودولته في مصر فكّر في التّخلّص منهم بنقلهم إلى بلاد إفريقيّة ويضربهم ببعضهم البعض، وبالتّالي يحقّق هدفين، فإمّا انتصار الهلاليّون والقضاء على بني زيري فيكون عقابا لهم على التّخلّي عن المذهب الشّيعي، وإمّا هزيمة بنو هلال فيكون الخلاص منهم.

وهكذا اجتاحت القبائل العربيّة برقة وطرابلس وافريقيّة وعاثت فيها فسادا وتخريبا، ودارت معركة كبيرة بينهم وبين المعز بن باديس قرب القيروان تعرف بـ (حيدران) وكانت الغلبة للهلاليين، وكانت هذه الهزيمة بداية نهاية الزريين، اقتسم العرب البلاد حيث استقرّت زغبة في طرابلس ورياح في برقة وبنو هلال وبنو سليم في تونس وما يليها غربا، وبهذه الطّريقة استقرّ العرب في بلاد المغرب وقد كان لهم دور في نشر اللّغة العربيّة خاصّة في المناطق الدّاخليّة باعتبارهم عرب رحل.

4- المذاهب والفرق الإسلاميّة:

بسبب الفتنة الّتي ظهرت في أواخر عهد الخلافة الرّاشدة ظهرت الفرق الإسلاميّة في المشرق، وقد اتّخذت هذه الفرق المواجهة مع الخلافة الرّسميّة وتسبّبت في ظهور العديد من الثّورات ممّا دفع بالخلافة إلى محاربة هؤلاء والعمل على القضاء علىهم، ورغم ذلك فقد

انتشرت في العديد من المناطق خاصّة في البصرة والكوفة، ومن أبرز الفرق الّتي ظهرت في هذه المرحلة الخوارج والشّيعة، ونظرا للضّغط الكبير على هذه الفرق فقد اختارت المناطق البعيدة عن الخلافة كاليمن أو بلاد المغرب، لقد نجحت بعض هذه الفرق في الانتشار بين قبائل الأمازيغ الّذين أقبلوا على تعلّم هذه المذاهب خاصّة الإباضية والصفرية ثمّ الشّيعة الاسماعليّة بعد ذلك، وقد وجد الدّعاة لهذه الفرق أرض خصبة ببلاد المغرب، كما أنّ تعسّف بعض الولاة في جباية الضّرائب لإرضاء الخلافة ساعد على هذا النّجاح دون أن ننسى المعاملة السيّئة للأمازيغ من طرف بعض الولاة (يرى ابن عذاري ودوزي أن البدو والمناطق الفقيرة كانت الأكثر تبنيا للفكر الخارجي).

كما انتشرت بعض المذاهب الفقهيّة في بلاد المغرب والّتي كان مصدرها المشرق الإسلامي ومنها مذهب الأوزاعي الّذي انتشر في الأندلس، لقد كان لهذه الفرق والمذاهب تأثير كبير في تحقيق التّواصل الثّقافي بين المغرب والمشرق الإسلامي، حيث سارع لبربر إلى اعتناق مبادئ هذه الفرق بل رحل البعض إلى المشرق للاستزادة من هذه المبادئ وانخرطوا في الدّفاع عنها.

المحاضرة الرابعة

الرّحلة العلميّة وحركة العلماء.

الرّحلة لغة التّرحيل والارتحال والسّير والضّرب في الأرض، فجاءت الرّحلة بمعنى الارتحال أي الانتقال من مكان لآخر، وجاءت بمعنى الجهة الّتي يقصدها المسافر، فالرّحلة هي السّير والانتقال إلى الجهة أو المقصد الّذي يراد السّفر إليه (ابن منظور لسان العرب)، وتعتبر الرّحلة من العوامل الّتي ساهمت بشكل كبير في التّواصل بين المشرق والغرب الإسلامي عبر فترات تاريخيّة عديدة إلاّ أنّها تباينت من مرحلة إلى أخرى بسبب تباين الظّروف السيّاسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة.

تسعى الرّحلة إلى تحقيق هدف معيّن ماديًا كان أو معنويًا ولهذا كان للرّحلة دوافع وعوامل مختلفة، منها ما تعلّق بالجانب الدّيني كفريضة الحجّ ومجاورة المسجد الحرام والمسجد النّبوي، ومنها ما تعلّق بالجانب التّجاري والاقتصادي، أو ما تعلّق بطلب العلم وزيّارة المراكز العلميّة، وعليه يمكن استنتاج أنواع الرّحلات، ومنها رحلات طلب النّجاة ويقصد بها الهجرة والخروج من أرض الكفر أو الّتي غلب عيّها النّصارى (الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة والهجرة الأندلسيّة)، أمّا الرّحلات لطلب الدّين فيدخل فيها الرّحلة العلميّة ورحلة الحجّ ورحلة الجهاد أو الرباط، أمّا النّوع الثّالث فهو رحلات طلب الدّنيا وهي خاصّة بالتّجارة وطلب الرّزق، كما يمكن أن نظيف الرّحلات السفاريّة أو السيّاسيّة (عبد الحكيم عبد اللّطيف، الرّحلة في الإسلام أنواعها وآدابها).

ورغم تعدّد أنواع الرّحلات إلاّ أنّها لا تختلف من حيث الأهداف العامّة للرّحلة، حيث كان طلب العلم هو الهدف الأساسي لأنّه من المسائل الهامّة الّتي يسعى لتحقيقها كلّ متعلّم، حيث لم تقف الصّعوبات والحدود أمام حرص طالب العلم في الوصول إلى منابع العلم الأصليّة، ولقاء الشّيوخ والأخذ عنهم وفي ذلك يقول ابن خلدون في المقدّمة "إنّ البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء

وتارة محاكا وتلقينا بالمباشرة إلاّ أنّ حصول الملكات عن المباشرة والتّلقين أشدّ استحكاما وأقوى رسوخا"، وكانت قيمة طالب العلم تحدّد من خلال ما قام به من رحلات ومن خلال عدد المدرّسين والشيوخ الّذين أخذ عنهم، ويشار إلى ذلك في التّعريف بالعلماء والفقهاء، ويذكر هؤلاء في كتبه، ومنهم أبو عبد الله المجاري الأندلسي في برنامج المجاري، حيث يترجم لشيوخه الّذين أخذ عنهم أثناء رحلته، وكذلك ابن غازي أبو عبد الله الّذي يذكر في فهرسته ثمانية عشر شيخا.

وهكذا كان الطّلبة يشدّون الرّحال إلى مختلف الأقطار الإسلاميّة، خاصّة تلك المناطق الّتي تتمتّع بعوامل الجذب من توفّر المؤسّسات العلميّة ومراكز الإواء والاستقرار السياسي وتشجيع السّلاطين للعلم والعلماء.

أمّا مسالك الرّحلة فقد كانت هناك دروب بريّة وبحريّة، وكان الطّريق الرّئيسي من المغرب الأقصى خاصّة من فاس مرورا بمدن المغرب الأوسط عبر تلمسان ووهران ثمّ جزائر بني مزغنة إلى بجاية وتونس وطرابلس الغرب ثمّ برقة إلى الاسكندريّة ومنها إلى القاهرة عبر النّيل إلى ميناء عيداب ثمّ مدن الحجاز، ومن القاهرة يتفرّع طريق آخر إلى بلاد الشّام وبيت المقدس.

أمّا الطّريق البحري فإمّا من مدن الأندلس خاصّة ألمريّة إلى موانئ المغرب الأوسط هنين ووهران أو تنس ثمّ بجاية فتونس إلى الإسكندريّة، أو من الأندلس الجزيرة الخضراء إلى سبتة أو طنجة ثمّ موانئ المغرب الأوسط ومنها إلى الإسكندريّة وهو نفسه طريق الحجّ.

مصنّفات الرّحلة

اهتمّ الكثير من الّذين ارتحلوا إلى بلاد المشرق أو الحجاز بتدوين رحلاتهم في كتب أصبحت من المصادر الأساسيّة لتاريخ نلك المناطق، وقد عرفت بكتب الرّحلة وعادة ما تنسب إلى أصحابها أو الأماكن المقصودة، وهناك من جمع بينها وبين الفهارس ومن أهمّ هذه المصنّفات.

- ابن سعيد المغربي (ت 685هـ) من الرّحالة الأوائل سنة 639هـ صنف كتابا عنوانه: "النّفحة المسكيّة في الرّحلة المكيّة".
- ابن رشيد السّبتي، (ت 721هـ) قام برحلة سنة 683 إلى الحجاز صنف رحلته المسماة "ملئ العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الرحمين مكّة وطيبة".
- محمّد العبدري، (تاريخ الوفاة مجهول) قام برحلة إلى المشرق 688هـ ودوّن رحلته في كتاب سمّاه "الرّحلة المغربيّة".
- ابن بطوطة اللّواتي الطنجي (ت 770هـ) صاحب الرحلة المسماة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، وأبو البقاء خالد البلوي (ت 780هـ) رحلة إلى الحجاز ودون رحلته، "تاج المفرق في تحليّة علماء المشرق، ثمّ أبو الحسن القلصادي الّذي دوّن رحلته المسماة رحلة القلصادي.

أمّا الرّحلات من المشرق إلى المغرب فهي رحلة عبد الباسط بن خليل القاهري (ت920)، زار تونس ثمّ بجاية ومدينة الجزائر ثمّ تلمسان حيث التقى والتقى بالشيخ أبي القاسم محمد المشدالي وأخذ عنه الكثير، كما جلس دروس العلامة محمد بن علي بن فشوش أشهر أطباء تلمسان، وأجازه، ولازم ابن الأشقر الأندلسي أمهر العلماء في العلوم القديمة والطب وعلم الوقف ثمّ رحل إلى الأندلس والتقى بأبي العبّاس أحمد الشّريف التّلمساني هناك، وفي سنة 871هـ عاد إلى القاهرة.

حركة العلماء بين المشرق والمغرب:

لقد تأثّرت حركة العلماء والطّلبة من المغرب إلى المشرق بالظّروف السيّاسيّة والثّقافيّة، لذلك هناك تفاوت في أعداد العلماء الّذين ارتحلوا إلى المشرق بين مرحلة وأخرى حسب الظّروف والإمكانات المتوفّرة، من مراكز علميّة والاستقرار السيّاسي وتوفّر الأمن، كما اتّجاه الرّحلة بين المغرب والمشرق لم متوازي فنسبة الوافدين من المغرب

على المشرق كانت كبيرة بسبب الازدهار العلمي والثّقافي الّذي شهدته حواضر المشرق بعد انتشار الإسلام، وبالتّالي لم يكن أهل المشرق في حاجة إلى التّنقّل إلى باقي الأقاليم الإسلاميّة، إلاّ أنّ هذه الأوضاع تغيّرت بعد ذلك بعدما ازدهرت حواضر المغرب الإسلامي وأصبحت مقصدا للطّلبة مثل القيروان وتونس وبجاية وتلمسان وفاس وقرطبة وغيرها من مدن المغرب الإسلامي.

لقد كان من عادة طلبة العلم الارتحال إلى المشرق رغم الصّعاب الكثيرة الّتي تعترض هؤلاء، وقد كان عددهم كبير جدًا حيث من المستحيل إحصاء هؤلاء حيث تزخر كتب التّراجم بأعدادهم، فالمقري عندما يتحدّث عن رحلة الأندلسيين إلى المشرق والّذين عرفهم فقط فإنّه من المستحيل إحصائهم "أعلم جعلني الله تعالى وإياك ممّن له للمذهب حقّ انتحال، أنّ حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلاّ علام الغيوب الشّديد المحال، ولو أطلقنا عنان الأقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء الأعلام لطال الكتاب وكثر الكلام" (المقري نفح الطّيب ج2 ص6)، هذا القول يفسّر العدد الكبير من المرتحلين من بلاد المغرب إلى المشرق الإسلامي للأسباب السّالفة الذّكر، ولذلك سنحاول التّطرق إلى بعض النّماذج القليلة من هؤلاء فقط.

ففي المرحلة الأولى بعد الفتح كانت حركة العلماء من المشرق إلى المغرب، وكان الهدف من الرّحلة إمّا الجهاد أو الدّعوة الإسلاميّة ونشر تعاليم الدّين الإسلامي، ورغم أنّ عددهم كان قليلا إلاّ أنّ دورهم كان بارزا في تحقيق التّواصل بين المشرق والمغرب، ومن أبرز هؤلاء:

عبد العزيز بن يحيي المدني رحل من المدينة إلى القيروان واستقرّ بها وتوفي سنة 225هـ، ومن مصر رحل زيد بن بشر بن عبد الرّحمان الأزدي المصري رحل إلى القيروان ثمّ اتّجه إلى الأندلس، كما رحل إلى القيروان المفسّر يحيي بن سلام التّميمي

الكوفي سكن القيروان حتّى وفاته سنة 200هـ، ومن الأدباء رحل الخطيب أبو البشر إبراهيم بن محمّد الشّيباني البغدادي دخل الأندلس ثمّ استقرّ بالقيروان توفّي سنة 298هـ.

كما رحل إلى الجهاد بأفريقية عبد الرّحمان بن أبي بكر والمسيّب بن مخزن ومن الفقهاء أبو الأشعث الكلبي وعبد الله بن المغيرة وأبو إسحاق بن مزاحم بن غياث وهو من التّابعين، (محمّد محمّد زيتون القيروان ودورها في الحضارة الإسلاميّة) وبعد القرن الخامس أصبح عدد المرتحلين إلى بلاد المغرب قليل جدًا مقارنة بالفترة السّابقة ومنهم تقيّ الدّين محمّد بن الشّيخ شهاب الدّين المصري رحل إلى الأندلس، وابن طراد النّحوي الحجازي، كما رحل إلى الأندلس عبد الرّحمان بن داود بن عليّ (ت 608) وعمر بن داود بن عمر الفارسي البخاري من أهل التّصوّف رحل كذلك إلى الأندلس (ت 604) (المقري نفح الطّيب ج2).

أمّا حركة العلماء والطّلاّب من المغرب إلى المشرق فإنّ عددهم كبير ومن أبرزهم في المرحلة القريبة من الفتح، أبو عبد الله محمّد بن جعفر التّميمي القزاز ولد بالقيروان ثمّ رحل العراق (ت 412هـ) (جلال الدّين السيوطي، بغية الوعاة ج1)، ومنهم أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي سحنون صاحب المدوّنة، كما رحل أبو يحيي حمّاد بن يحيي إلى مكّة والمدينة أخذ عن علمائها، كما رحل إلى بلاد الشّام خالد بن ربيعة الأفريقي، كما رحل محمّد بن سحنون إلى المدينة سنة 235هـ.

أمّا بعد القرن الخامس والسّادس فإنّ عدد المرتحلين إلى المشرق تضاعف بسبب الأوضاع السيّاسيّة في بلاد المغرب، ومن أبرز النّماذج، فمن الأندلس رحل كلّ من محمّد بن أحمد بن محمّد بن إبراهيم بن سراقة شرف الدّين رحل إلى مصر (ت660هـ) وأبو عبد الله بن عبد الرّحمان بن الحكيم الرّندي ذو الوزرتين رحل إلى مصر والحجاز وبلاد الشّام (ت708هـ)، ومحمّد بن عبد الله بن فرتون الأنصاري رحل إلى الحجاز (ت764هـ) وأبو بكر محمّد بن عبد الله الإشبيلي المعروف بأن العربي الّذي رحل إلى

المشرق سنة 485هـ، وأبو بكر محمّد بن الوليد القرشي المالكي المعروف بالطّرطوشي الّذي زار الحرمين ودخل بغداد وبلاد الشّام (ابن بشكوال كتاب الصّلة).

ومن نماذج بلاد المغرب رحل كلّ من أبو القاسم التنوخي من المغرب الأدنى إلى مصر والحجاز وأخذ عن عدّة علماء (ت622هـ) وأبو إسحاق إبراهيم بن خلف التّنسي من المغرب الأوسط رحل إلى القاهرة (ت680هـ) وعبد السلام بن علي الزواوي بن سيد النّاس رحل إلى القاهرة (ت681هـ) وابن زيتون التّونسي وأبو عبد الله العبدري الفاسي ومحمّد بن إبراهيم الآبلي وأبو عبد الله المقري وابن مرزوق الخطيب وعبد الرّحمان بن خلدون وغيرهم (الغبريني، عنوان الدّراية، ابن فرحون الدّيباج، محمّد بن محمّد مخلوف شجرة النّور الزّكيّة).

لقد ساهمت الرّحلة العلميّة في توثيق الصلات الثّقافيّة بين المشرق والمغرب، كما سهلت من التّواصل بين العلماء وتحقيق التعاون في مجالات علمية، بل ساهم هؤلاء في ازدهار الحياة العلميّة، حيث تولّى العديد منهم التّدريس والقضاء ةالإمامة وغيرها، كما أدّت الرّحلة إلى بروز مراكز وأقطاب ارتبطت شهرتها بالنّشاط التّعليمي لكونها شكّلت قبلة للعلماء والمدرّسين والطّلاب، كما أنّ الرّحلة لم تقتصر على مجال علمي واحد بل ضمّت كلّ فروع المعرفة، وبالتّالي كانت من العوامل الأساسيّة في تحقيق التّواصل الثّقافي بين المشرق والمغرب عبر المراحل التّاريخيّة.

المحاضرة الخامسة: عوامل التّواصل الثّقافي

- رحلة الحج:

كان حرص المغاربة كبيرا جدًا على أداء الرّكن الخامس من أركان الإسلام كباقي المسلمين في أنحاء العالم، وقد مثّلت رحلة الحجّ أقوى الرّوابط الّتي تربط أهل المغرب بالمشرق، حيث لم تقف المسافة البعيدة والظّروف الطّبيعيّة حاجزا أمام حرص المغاربة على أداء مناسك الحج، ومن جهة أخرى فقد كان اهتمام السّلاطين والحكّام بهذه الرحلة أيضا، فقد عملوا على توفير كلّ الظّروف المناسبة لإنجاح هذه الرّحلة من حيث توفير وسائل الرّاحة والأمن وتمهيد الطّرق وحراستها.

ومن مظاهر اهتمام السّلاطين بمناسك الحج، اعتنائهم بالمدن الّتي يمرّ بها ركب الحجيج، ففي المشرق اعتنت معظم الدّول الّتي حكمت هذه البلاد سواء في عهد الأمويين أو العباسيين وحتّى في عهد المماليك بمحطّات الحجيج في الاسكندريّة والقاهرة باعتبارهما المحطّة الأولى للحجيج المغاربة، حيث وفروا فرصة لقاء المشايخ والعلماء والفقهاء التي يتمّ فيها تبادل المعارف وأخذ الإجازات العلمية سواء أثناء الذّهاب أو العودة، كما حظيت مدن الحجاز خاصّة مكّة والمدينة باهتمام السّلاطين، فشيّدوا المدارس وقرّروا إقامة الدروس في الحرمين خاصّة بكلّ المذاهب (سعيد عبد الفتّاح عاشور، العصر المملوكي في مصر والشّام).

ومن أجل تسهيل مهمّة الحجاج فقد اهتمّ السّلاطين والعلماء والفقهاء سواء في المغرب أو المشرق بتخصيص أوقاف خاصّة بالحرمين، فقد حبس الكثير منهم المصاحف والمكتبات، كما خصص بعض حكام المشرق أحباس للحرمين منها الرّواتب السّنويّة للمشرفين عليها وكسوتها كلّ سنة إضافة إلى كميّات من الإنتاج الزّراعي توزّع على الفقراء، وهذا كلّه لخدمة ضيوف الرّحمان وتسهيل التّواصل بين العلماء والطّلبة.

وكان ركب الحجيج الّذي ينطلق من المغرب والأندلس يضمّ عدّة فئات منهم الطّلبة والعلماء والأطبّاء والفقهاء الّذين كان هدفهم الثّاني بعد أداء الفريضة هو لقاء المشايخ والأخذ عنهم في المدن الّتي يمرّون بها، فكان يتمّ تبادل المعارف والعلوم والحصول غلى الإجازات العلميّة. (القلصادي، رحلة القلصادي، تح محمّد أبو الاجفان).

لقد كان لرحلة الحجّ دورا كبيرا في تحقيق التّواصل الثّقافي بين المغرب والمشرق، حيث يتمّ التّعارف بين العلماء في المغرب والمشرق فتمتزج الأفكار والمعارف، فطلبة المغرب يأخذون عن علماء المشرق والعكس كذلك، فيتمّ الاطّلاع على المستجدّات العلميّة وعلى المؤلّفات، ولذلك فقلما نجد ترجمة لعالم من بلاد المغرب تخلّوا عن شيوخه من المشرق.

وإلى جانب رحلة الحجّ هناك ظاهرة المجاورة وهي لا تقلّ أهميّة عن الحجّ، وهي المكوث في مكّة والمدينة بجوار الحرمين مدّة من الزّمن لتحقيق أهداف دينيّة أو علميّة أو حتّى اقتصاديّة، وكان أهل بلاد المغرب ومصر والشّام أكثر المهتمّين بهذه الظّاهرة، وكان المجاورون من فئات مختلفة منهم العلماء وطّلبة العلم والزهاد ورجال التّصوّف، كما كان بعضهم يفضّلون قضاء ما بقي من حياتهم بجوار الحرمين، وفي هذا الجوّ كان يتمّ تبادل المعارف بالتقاء العلماء وطلاّب العلم من مناطق إسلاميّة عديدة وهذا ما يحقّق التّواصل الثّقافي.

المحاضرة السادسة

مظاهر التّواصل الثّقافي.

لقد نتج عن حركة الاتّصال والعلاقات السيّاسيّة والثّقافيّة بين المشرق والمغرب مجموعة من المظاهر في ميادين مختلفة دينيّة وعلميّة وفنيّة وغيرها، وإن كانت هذه المظاهر في العهود الأولى بعد الفتح كانت لصالح المشرق إلاّ أنّ بعد ذلك عندما تأسّست الدّول المستقلّة في بلاد المغرب، ساهمت بلاد المغرب في الازدهار الثّقافي الّذي شهدته بلاد المشرق.

1- **المظاهر الدّينيّة:** لقد نتج عن التّواصل بين المشرق والمغرب انتشار المذاهب والفرق الدّينيّة، ففي المرحلة الأولى بعد انتشار الإسلام في بلاد المغرب ونظرا للصّراعات الّتي شهدتها الخلافة الإسلاميّة وظهور المعارضة السيّاسيّة فقد تأثّرت بلاد المغرب بهذه الظّروف، حيث وجد دعاة هذه الفرق الظّروف مناسبة لنشر أفكارهم.

ومن هذه الأفكار الّتي انتشرت في بلاد المغرب الفكر الخارجي والمذهب الشّيعي، ونظرا لحركة العلماء نحو المشرق فقد انتشرت المذاهب الدّينيّة كذلك، حيث كان العلماء هم من نقلوها إلى بلدانهم بعد أن أخذوها من علماء المشرق، ومن هذه المذاهب مذهب الأوزاعي (الأوزاعي هو أبو عمرو عبد الرّحمان بن عمر الأوزاعي، إمام أهل الشّام... من كتاب الصّفدي الوافي بالوفيات، ج18) الّذي أدخله إلى الأندلس بعد الفتح صعصعة بن سلام المتوفّى سنة 192هـ.

كما انتقلت أيضا إلى بلاد المغرب المذاهب السنيّة بعد أن انتشرت في بلاد المشرق وقد عمل الفقهاء والعلماء على تشجيع هذه المذاهب خدمة للتّوجّه السيّاسي العام الّذي كان يميل إلى تشجيع وحدة المذاهب، ومن المذاهب الأساسيّة الّتي عمّت بلاد المغرب المذهب المالكي، فرغم محاولة الدّولة الموحدية تشجيع المذهب الظّاهري (ينسب إلى ابن حزم الأندلسي) ومحاربة المذاهب السّنيّة خاصّة المذهب المالكي الّذي كان مذهب الدّولة المرابطيّة، وبعد سقوط الموحدين عاد المذهب المالكي لبلاد المغرب، حيث أصبحت كتب المالكيّة هي أساس التّدريس ومنها الموطّأ للإمام مالك والتّلقين لعبد الوهّاب البغدادي (ت

422هـ) والعتبية للفقيه القرطبي العتبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز الأموي (ت 245هـ) والمدوّنة للإمام سحنون (ت 240هـ/ م) والرّسالة لأبي زيد القيرواني (ت 386هـ)، وهي كتب بعضها مشرقي وبعضها مغربي، كما أدخل العلماء بعض الكتب الأخرى من بلاد المشرق منها مختصر ابن الحاجب الكردي الأصل مصري المولد (ت 646هـ/ 1249م) ومختصر خليل (ت 776هـ). (ألّفه الشّيخ ابن إسحاق بن موسى بن شعيب المالكي المصري، وهو مصنّف في الفتح المالكي استغرق في تأليفه 25 سنة).

وهكذا شهدت بلاد المشرق والمغرب وحدة المذاهب السنيّة واختفاء باقي المذاهب الأخرى حيث كان للحكام دور بارز في تشجيع هذه المذاهب من خلال تقريب علماء وفقهاء هذه المذاهب خاصّة بعد سقوط الدّولة الفاطميّة في بلاد المشرق وسقوط الموحّدين في بلاد المغرب، هذه الوحدة المذهبيّة جعلت علماء بلاد المغرب يرتحلون إلى المشرق ويزاولون وظائف عديدة هناك بالدّرجة الأولى قضاء المالكيّة، كما هو الحال لابن خلدون الّذي تولّى القضاء في مصر (ابن خلدون ورحلته غربا وشرقا).

-انتشار التّصوّف، رغم أنّ التّصوّف ظهر في بلاد المشرق حوالي القرن الثّاني الهجري، وكان بمعنى الزّهد والانصراف عن الدّنيا ومتاعها والعناية بأمور الدّين، وغايته الظّفر برضوان الله تعالى، وكان الزّهد هو النّواة الأولى للتّصوّف ثمّ تطوّر بعد ذلك إلى المفهوم الاجتماعي بعد خروجه عن مفهومه الدّيني المحض (ابن خلدون المقدّمة).

لقد دخل التّصوّف إلى بلاد المغرب عن طريق العلماء الّذين رحلوا إلى بلاد المشرق أو عن طريق الحجاج وطلبة العلم، فبعد اطّلاعهم على حركة التّصوّف في المشرق فنقلوا بعض مصنّفات التّصوّف إلى المغرب وأبرزها إحياء علوم الدّين لأبي حامد العزالي (ت 505هـ/ 1111م).

ونظرا لانتشار التّصوّف في المشرق فقد رحل العديد من رجال التّصوّف من بلاد المغرب إلى المشرق، ومن هؤلاء عبد الحق ابن سبعين الأندلسي (ت 669هـ/ 1269م)،

وأبو الحسن الششتيري (ت 668هـ) صاحب كتاب "المقاليد الوجوديّة في أسرار الصّوفيّة"، كما رحل الفقيه الصّوفي علي بن أحمد بن حديدة الأندلسي المتوفّى في بيت المقدس سنة 719هـ (المقري نفح الطّيب).

ومن العوامل الّتي شجّعت على انتشار التّصوّف سواء في المشرق أو المغرب هو كثرة الاعتقاد في رجال التّصوّف، فوجد رجال التّصوّف الظّروف المناسبة لنشر أفكارهم، إضافة إلى تقريب الحكّام والسّلاطين لرجال التّصوّف من مجالسهم وأسّسوا لهم الزّوايا والرّبط وحبس الأموال والغلات عليها.

ومن أبرز الطّرق الصّوفيّة الّتي انتشرت في المشرق والمغرب، الطّريقة القادريّة الّتي أسّسها الشّيخ عبد القادر الجيلاني المتوفّى سنة 561هـ انتشرت في بلاد الشّام ومصر ثمّ انتقلت إلى بلاد المغرب، وقد أخذ هذه الطّريقة أبو مدين شعيب الإشبيلي دفين تلمسان، وقد تفرعت عنها طرق صوفيّة عديدة في المغرب والمشرق. (ابن كثير البداية والنّهاية ج12).

الطّريقة الشّاذليّة أسّسها الشّيخ أبو الحسن الشّاذلي الّذي يعود أصله إلى بلاد المغرب رحل إلى مصر، وقد عرفت هذه الطّريقة رواجا كبيرا خاصّة في بلاد المغرب، وتعدّ امتداد لطريقة أبي مدين شعيب.

أمّا الطّريقة الأحمديّة فرغم أنّها ظهرت في مصر فإنّ مؤسّسها مغربي الأصل وهو السيّد أحمد البدوي المتوفّى سنة 675هـ.

إنّ انتشار التّصوّف في المغرب والمشرق يدلّ على ذلك التّواصل الثّقافي الكبير بين المغرب والمشرق، فقد تعدّدت اللّقاءات بين رجال التّصوّف كما تأثّر بعضهم ببعض، وتبادل مؤلّفات التّصوّف، وتولّى بعض متصوّفة المغرب التّدريس والإمامة بالمؤسّسات الدّينيّة في المشرق، وأصبح لهؤلاء أثر كبير في المجتمع وحتّى لدى السّلاطين. (عبد الرّحمان بلعرج، علاقات دول المغرب الإسلامي بدولة المماليك).

المحاضرة السابعة

2- المظاهر العلميّة:

لقد مثّلت المظاهر العلميّة أبرز مظاهر التّواصل الثّقافي بين المغرب والمشرق، وقد ظهر هذا التّأثير في جوانب عديدة من خلال حركة العلماء والطّلبة من المغرب إلى المشرق حيث شارك الكثير منهم وظائف مختلفة، حيث شملت ميادين التّدريس والقضاء والطّب وغيرها.

1- في مجال التّدريس ومناهجه:

نظرا للعدد الكبير للمرتحلين من المغرب إلى المشرق فقد مارس هؤلاء مهمّة التّدريس في أكبر المراكز العلميّة في بلاد المشرق، كما نتج عن هذه الحركة العلميّة الاطّلاع على مناهج التّعليم في المنطقتين، فقد اقتبس المغاربة من المشرق خاصّة مصر طريقة الحوار أي السّؤال والجواب وهي طريق كانت منتشرة في القاهرة هذه الطّريقة الّتي تجعل من الطّالب أساس العمليّة التّعليميّة من خلال الحوار المستمرّ بين الطلبة بينما الأستاذ يقوم بالتّوجيه وإدارة المناقشة، ومن أبرز العلماء الّذين نقلوا هذه الطّريقة، ابني الإمام (أبو زيد عبد الرّحمان (ت 743هـ/ 1342م) وأخوه أبو موسى عيسى (ت 749هـ/ 1348م)، وعمران المشدالي، وقد لقيت هذه الطّريقة ترحيبا من المدرّسين والطّلبة (عبد الرّحمان بلعرج، المرجع السّابق).

ومن مناهج التّدريس الّتي انتقلت عن طريق العلماء الّذين رحلوا إلى المشرق ظاهرة الكراسي العلميّة خاصّة من مصر، وقد كان كلّ كرسي مخصّص لمادّة معيّنة، وتقام هذه الدّروس في المدارس والمساجد.

ومن أشهر علماء المغرب الّذين زاروا المشرق واشتغلوا بالتّدريس وتأثّروا بمناهجه، أبو القاسم بن زيتون الّذين رحل من إفريقية إلى المشرق وتأثّر بمنهج المشارقة، كما رحل إلى المشرق من المغرب الأقصى ابن شعيب الدكالي ومن المغرب الأوسط ناصر الدّين المشدالي، ومن الّذين درسوا بالمشرق ابن مرزوق الخطيب الّذي تولّى التّدريس بالمدرسة

الصرغتمشية والمدرسة النّجميّة، ومن الّين تولّوا التّدريس أيضا بمصر محمّد بن عبد الله حافي رأسه المتوفّى 693هـ، كما أشارت بعض المصادر إلى أنّ أبا الفضل محمّد بن الإمام تولّى التّدريس ببيت المقدس، كما درس ابن خلدون بالمدرسة القمحيّة والمدرسة البرقوقيّة (ابن مريم البستان).

ومن الأندلس رحل أبو عبد الله بن سراقة الشّاطبي وتولّى مشيخة دار الحديث بحلب ومشيخة دار الحديث بالقاهرة، أمّا أبو بكر محمّد بن عبد الله الأندلسي فقد تولّى التّدريس بالرّباط النّاصري ودرس بالفاضليّة بمصر، أمّا فتح الدّين بن سيد النّاس المتوفّى سنة 734هـ فقد تولّى تدريس الحديث بالمدرسة الظّاهريّة بمصر كما تولّى التّدريس بالجامع الأموي بدمشق الفقيه أبو العبّاس بن أحمد بن فرج الاشبيلي.

ومن الأماكن الهامّة الّتي درس فيها المغاربة والّتي لها قيمة كبيرة عندهم هي مكّة والمدينة، ومن هؤلاء العلماء أبي عبد الله محمّد بن إبراهيم بن غصن الإشبيلي، وأبو بكر بن يوسف بن مسدّي تولّى التّدريس بمكّة والمدينة، ومنهم أبا عبد الله محمّد بن عالب بن يونس الجياني.

2- ومن الوظائف الّتي تولاّها علماء المغرب القضاء، وخاصّة قضاء المالكيّة ومن أبرز هؤلاء عبد الرّحمان بن خلدون الّذي تولّى القضاء بمصر، ومحمّد بن أبي القاسم الربيعي التونسي الّذي تولّى القضاء بالاسكندريّة، وعبد السلام بن علي الزواوي الّذي تولّى القضاء بمدينة دمشق، كما اشتغل المغاربة بوظيفة الطّب نظرا لما كان يتمتّع به هؤلاء خاصّة علماء الأندلس، فنذكر منهم الطّبيب عبد المنعم الجياني الّذي خدم صلاح الدّين لفترة طويلة، والطّبيب أبو تمام غالب بن محمّد اللّخمي الأندلسي الّذي عمل بالبيمارستان بالقاهرة، وابن الرومية الّذي خدم بمصر المالك العادل، والطّبيب أبو مروان موسى بن ميمون القرطبي اليهودي الذي أسلم في المغرب وحفظ القرآن ثمّ رحل إلى مصر وخدم النّاصر صلاح الدّين.

أمّا عن علماء الأندلس الذين تولّوا القضاء منهم أبي عبد الله بن علي بن الأزرق تولّى قضاء المالكيّة بمصر وإسماعيل بن محمّد بن هاني اللّخمي الغرناطي تولّى قضاء المالكيّة

بحماه ببلاد الشّام، وشهاب الدّين أحمد بن مهاجر الوادي أشي تولّى القضاء بحلب (المقري نفح الطّيب).

3- المراسلات العلميّة:

لقد ساعد انتشار المذاهب السنيّة في بلاد المغرب والمشرق على تنشيط حركة التّبادل العلمي والمراسلات خاصّة ما تعلّق منها بالفتوى والاستفسار عن الأمور الدّينيّة، فكان الكثير من علماء المغرب يستفتون علماء المشرق كلّما استعصت عليهم مسألة معيّنة، ومن ذلك رسالة كتبها سحنون إلى عبد الملك بن الماجشون يذكر له ما حدث في بلاد المغرب من كلام في التّشبيه والقرآن ويسأله الجواب، فكان ردّ ابن الماجشون "من عبد الله بن الماجشون إلى سحنون بن سعيد سلام عليك، سألتني عن مسائل ليست من شأن أهل العلم والعمل بها جهل، فيكفيك من مضى من صدر هذه الأمّة إنّهم اتّبعوا بإحسان ولم يخوضوا في شيء" (القاضي عياض، ترتيب المدارك ج2).

ومن المشرق كتب علي بن أحمد بن إسماعيل البغدادي الّذي سكن مصر إلى فقهاء القيروان رسالة يدعوهم فيها إلى الاعتزال والقول بالقدر والمخلوق وغير ذلك من مذهبهم، كما كان عبد الله بن غانم قاضي القيروان إذا أشكلت عليه قضيّة أجل الحكم فيها حتّى يراسل مالك بن أنس ويستفسّره فيها.

كما أن ظاهرة الاستفسار عن المسائل الفقهيّة لم تقتصر على الرّسائل بل كانت تتمّ عن طريق الوفود إلى المشرق عندما يلتقون بعلماء المشرق، هذه المرسلات تدلّ على قوّة العلاقة الثّقافيّة بين العلماء في أنحاء العالم الإسلامي، إنّ هذه المراسلات العلميّة وتبادل المصنّفات كان تأثيرها إيجابيا على الحياة العلميّة في بلاد المغرب والمشرق، كما ساهمت من جهة أخرى في ازدهار الحياة العلميّة وكثرة التّأليف وهي دليل على متانة العلاقة بين العلماء والاحترام المتبادل.

المحاضرة الثامنة

مظاهر التّواصل الثّقافي.

1- الإجازة العلميّة:

الإجازة هي إعطاء الإذن بالإفتاء أو الرّواية، أجاز أي أذن له وهي المرتبة الثّالثة بعد السّماع من الشّيخ والقراءة عليه، فيأذن الشّيخ لتلميذه بأن يروي عنه ما سمعه أو مؤلّفاته، وتعتبر من أعلى الشّهادات الّتي يتحصّل عليها الطّالب، فهي الوثيقة الّتي من خلالها يصل إلى مستوى الإفتاء أو التّدريس، والإجازة ثلاثة أنواع، إجازة العرضيّة وهي شهادة يمنحها أحد الشّيوخ لأحد الطّلاّب بعد أن عرض عليه أحد الكتب العلميّة ويتأكّد من أنّه حفظه، وإجازة الفتوى أو التّدريس وهي شهادة يمنحها الشّيخ لأحد الطّلبة بعد أن يختبره في مادّة علميّة ويتأكّد من أنّه فهمها جدًا، إجازة رواية الحديث وهي شهادة يمنحها أحد شيوخ الحديث وحفاظه لأحد الطّلبة يجيزه فيها برواية ما أخذه عنه من الأحاديث.

ومن شروط الإجازة أن يكون عالما لما يجيز به وثقة في دينه وروايته معروفا بالعلم وأن يكون المستجيز من أهل العلم متّسما بسماته حتّى لا يعطى العلم لغير أهله، أي أنّ الشّيخ لا يمنحها إلاّ لطالب واسع المعرفة متمكّنًا من مادّته محيطا بالتّخصّص الّذي يريد أن يجازى فيه إجازة تكون إذنا له بالرّواية عن شيحه والسّماح له بالدّخول له في ميدان التّعليم أو الفتوى أو القضاء. (ديب صفيّة: التّربيّة والتّعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحّدين).

وقد كان الطّلبة يرتحلون من مكان لآخر للحصول على هذه الإجازات والّتي تؤهّلهم لتولّي منصب علمي معيّن، لذلك كان الطّلبة يحصلون على الإجازة من عدّة علماء لأنّ كثرة الإجازات تدلّ على المستوى العلمي، ويذكر ابن عماد الحنبلي أنّ أبا حيّان الغرناطي سمع الحديث فقط من أربعمائة وخمسين شيخا أجازوه كلّهم، وتبادل الإجازات يعدّ مظهرا من مظاهر التّواصل الثقافي بين المغرب والمشرق، ومن الأمثلة على ذلك فقد ذكر القلصادي أنّه

حصل على إجازة في الحجاز من الشّيخ أبي الفتح الحسني المراغي، وحصل في مصر على إجازة من الشّيخ عبد السّلام بن عبد المنعم البغدادي، كما أخذ أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف التّنسي لإجازة من الشّيخ شهاب الدّين القرافي والشّيخ سيف الدّين الحنفي، أمّا ابن الأبار فقد حصل على إجازة من عمر بن مودود بن عمر الفارسي البخاري. (القلصادي: الرّحلة).

2- المناظرات العلميّة:

تعتبر المناظرات من الوسائل العلميّة االهامّة تمكّن من تبادل الآراء والنّقاش حول المسائل العلميّة والفقهيّة، كما تعتبر كذلك للرّد على المذاهب والأفكار للمذهب الرّسمي للدّولة، وقد كانت المناظرات تتمّ أمام الحكّام وبتشجيعهم، وقد كثرت المناظرات مثلما كثر الاختلاف وانتشار المدارس والمؤسّسات العلميّة الّتي كانت تعجّ بالطّلاّب.

وقد عرف العالم الإسلامي المناظرات منذ عهوده الأولى، وعند انتشار الإسلام في بلاد المغرب رحل العديد من العلماء والطّلاّب إلى المشرق الإسلامي، فبدأت المناظرات بين علماء المغرب والمشرق ومن أبرز تلك المناظرات، مناظرة محمّد بن سحنون من القيروان لأحد اليهود حول الدّين الإسلامي، وقد استمرّت المناظرة من صلاة الظّهر إلى صلاة المغرب وانتهت بتفوّق ابن سحنون وكانت سببا في إسلام هذا اليهودي.

وذكر ابن رشيد السّبتي في رحلته دخل في مناظرة مع الفقيه شمس الدّين الأصفهاني في قضيّة لغويّة لما حلّ بمصر، ومن المغرب الأوسط رحل ابنا الإمام أبو زيد عبد الرّحمان وأبو موسى عيسى إلى المشرق وناظرا الفقيه ابن تيميّة تقيّ الدّين حول المسائل الفقهيّة، (ابن مريم، البستان) كما ناظرا محمّد بن عبد الكريم المغيلي جلال الدّين السيوطي، لقد ساهمت المناظرات العلميّة في التّقريب بين علماء المغرب والمشرق كما دلّ أيضا الاحترام المتبادل بين العلماء، كما ساهمت أيضا في ازدهار الحياة العلميّة وتبادل الآراء والأفكار.

المحاضرة التاسعة.

المظاهر الفنيّة والمعماريّة.

لقد عرفت بلاد المغرب تطوّرا كبيرا في المجال الفنّي والمعماري خاصّة بلاد الأندلس متأثّرة بما حدث في المشرق، فقد انتقلت المؤثّرات المشرقيّة في مجال الموسيقى مع العرب الفاتحين أو أيّام الدّولة الأمويّة في الأندلس، وبعد الانفتاح على العباسيين فقد انتقل زرياب أيّام عبد الرحمان الأوسط إلى الأندلس وعمل على تطوير فنّ الموسيقى والغناء خاصّة بعد أن أسّس مدرسة لتعليم الغناء ومعالجة الأصوات، كما ينسب إليه اختراع مضرب العود من ريش النّسر بدل المضرب الخشبي، ومن جهة أخرى ساهم في إدخال بعض العادات الاجتماعيّة في اللّباس والأكل.

ومع التّطوّر الحضاري في بلاد المغرب والأندلس وبسبب الهجرة إلى المشرق فقد انتقل التّأثير الفنّي خاصّة وأنّ الهجرة ضمّت عدد من أهل الفنّ والموسيقى ساهموا في تطوّر هذا الفنّ في المناطق التي حلّوا بها، ومن هؤلاء الطّبيب الأندلسي أبو الحكم عبيد الله بن المظفر من أهل المرية، كان إلى جانب مهنته يعزف الموسيقى، وأبو زكريّا يحيي بن إسماعيل رحل وسكن دمشق وهو الّذي اخترع آلة الأرغن وكان يدرس علم الموسيقى.

ومن الفنون الّتي اشتهرت في بلاد المغرب وخاصّة الأندلس فنّ الموشّحات ورغم أنّ هناك من يرى أنّ جذورها مشرقيّة إلاّ أنّ ابن خلدون يقول عنها أنّها فنّ جديد نشا بالأندلس تخلّص من الأوزان الشّعريّة والقافيّة، وقد ظهر بعد اختلاط العرب بغيرهم من أهل الأندلس، وقد انتقل هذا الفنّ إلى بلاد المشرق وخاصّة مصر وتطوّر أكثر في القرنين السّادس والسّابع الهجريين، ومن أبرز الوشّاحين في مصر عثمان بن عيسى بن منصور من مؤلّفاته كتاب العروض الكبير وكتاب العروض الصّغير، ومنهم صدر الدّين بن الوكيل، كما انتقل إلى المشرق فنّ يعرف بالزّجل وهو كذلك فنّ أندلسي وجد بيئة مناسبة للانتشار بأعراضه

المختلفة خاصّة وأنّه ينظّم بالعاميّة، ومن الزّجّالين في مصر علاء الدّين بن مقاتل الحموي وبدر الدّين الزّيتوني.

أمّا في مجال العمارة فقد شهدت بلاد المغرب في المراحل الأولى انتشار العمارة الإسلاميّة من خلال بناء المدن والمؤسّسات الدّينيّة، خاصّة وأنّ بعض القادمين من المشرق وخاصّة الّذين أسّسوا دولا في بلاد المغرب حاولوا نقل هذه المؤثّرات المشرقيّة إلى بلاد المغرب، وأبرزهم عبد الرّحمان الدّاخل الّذي عمل على نقل كلّ الخصوصيّات المعماريّة المشرقيّة خاصّة من دمشق، فعرفت الأندلس تطوّرا عمرانيا كبيرا وأصبح النّموذج لباقي المناطق الإسلاميّة خاصّة في القصور والمساجد والقباب.

وبعد ضعف الدّولة الإسلاميّة في الأندلس وهجرة الأندلسيين إلى بلاد المشرق انتقلت خصوصيّات العمارة الأندلسيّة إلى المشرق عن طريق هؤلاء المهاجرين، حيث كان منهم المهندسين والحرفيين والفنّانين، وهذا ما جعل بعض الحكّام يستخدمونهم في البناء والزّخرفة، ومن تلك المظاهر العقود المنفوخة المتجاورة والعقود التّوأميّة في الوجهات والمآذن الموجودة ضريح المنصور قلاوون المملوكي، وكذلك في قبّة فاطمة خاتون، كما تظهر التّأثيرات في قباب جامع ابن طولون وكأنّها منقولة من قرطبة، كما تظهر التّأثيرات الأندلسيّة في مئذنة مدرسة المنصور قلاوون وهي شبيهة لمئذنة مسجد إشبيلية.

ومن خلال هذه النّماذج يتّضح حركة التواصل بين المشرق والمغرب والّتي لم تقتصر على مرحلة معيّنة بل أصبحت ظاهرة في كلّ الفترات الّتي مرّ بها المغرب والمشرق، وقد ساهم هذا التّواصل في إثراء الحياة الفكريّة.